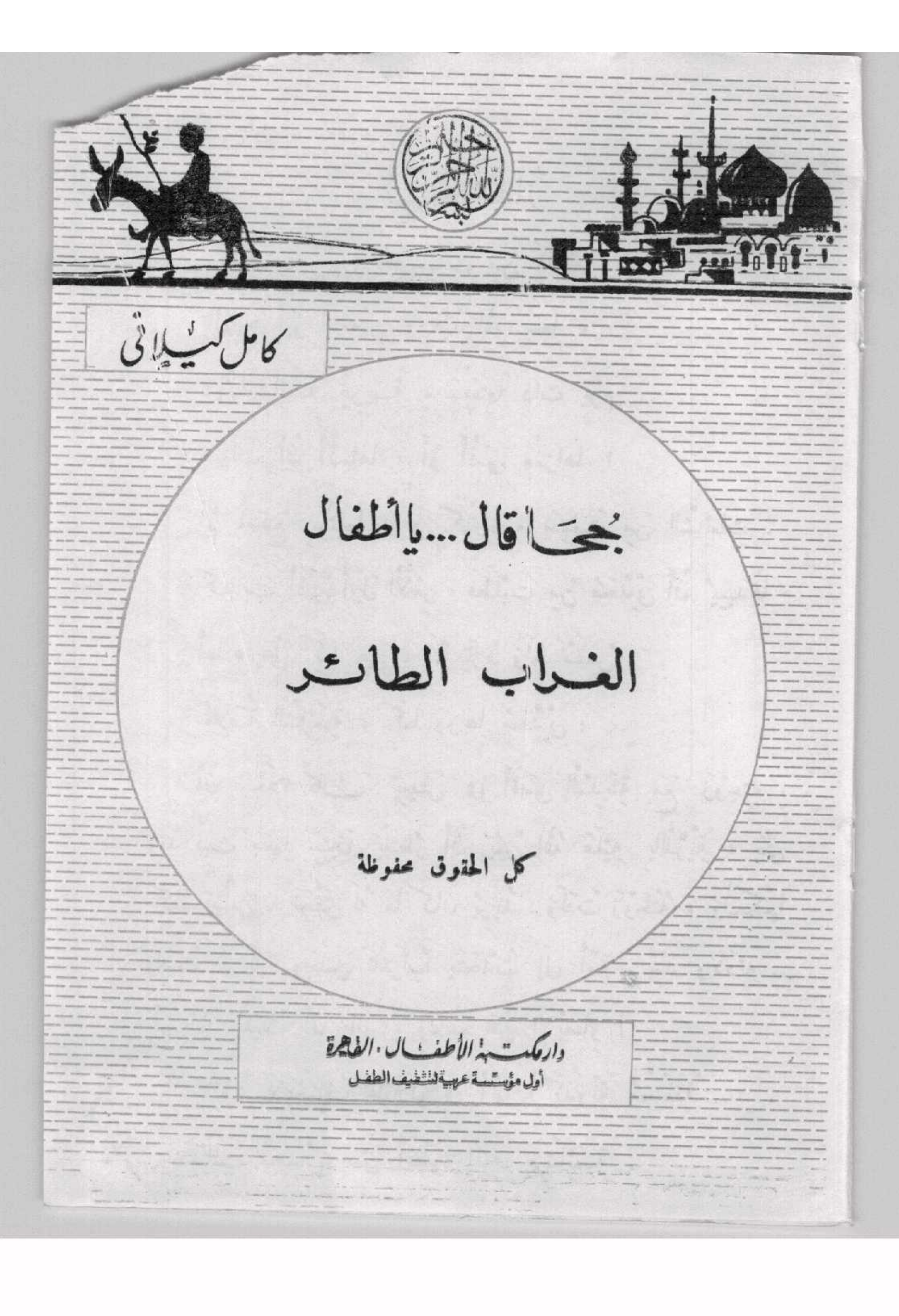

كامل كيلاني
جحا قال ... يا أطفال
الغراب الطائر
كل الحقوق محفوظة
دار مكتبة الأطفال . القاهرة
أول مؤسسة عربية لتثقيف الطفل

الـغُرابُ الطَّـائِرُ

١ – سَمِعْتُ مِنْ فُلانٍ

قالَ « أبو الـغُصْنِ : عَبْدُ اللهِ جُحا » :

« إنَّها شائِعَـةٌ غَرِيبَـةٌ ، سَمِعْتُها ذاتَ يَوْمٍ .

هَيْهاتَ أنْ أنْساها ، أوْ أنْسَى مَغْزاها !

لَمْ أسْمَعْ بِمِثْلِها ، عَلَى كَثْرَةِ ما سَمِعْتُ مِنَ الشَّائِعاتِ .

كَـذَّبْتُ أُذُنَيَّ أوَّلَ الأمْرِ ، فَطَلَبْتُ مِنْ مُحَدِّثِي أنْ يُعِيدَها .

أعادَها عَلَيَّ كَما هِيَ ، لَمْ تَزِدْ وَلَمْ تَنْقُصْ .

خُلاصَةُ الشَّائِعَةِ ، كَما رَواها مُحَدِّثِي :

أنَّ رَجُلًا كانَ يَعِيشُ فِي أقْصَى الْمَدِينَةِ مَعَ زَوْجَتِهِ ، وَقَدْ لَبِثَ مَعَها سِنِينَ يَنْتَظِرُ أنْ يَمُنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِالذُّرِّيَّةِ ، حَتَّى كادَ يَيْأَسُ . تَحَقَّقَ لَهُ ما كانَ يُرِيدُ : وَلَدَتْ زَوْجَتُهُ ، وَلٰـكِنَّها وَلَدَتْ غُرابًا ! وَجَلَسَ الْغُرابُ يَتَحَدَّثُ إلَى أُمِّهِ – بَعْدَ وِلادَتِهِ – ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أنْ طارَ ، وَغابَ عَنِ الأبْصارِ !

شائِعَـةٌ لا يَخْتَلِفُ عاقِلانِ فِي أنَّها أُكْذُوبَةٌ مُخْتَلَقَةٌ .

سَألْتُ مُحَدِّثِي عَمَّنْ أفْضَى إلَيْهِ بِالشَّائِعَـةِ .



قالَ مُحَدِّثِي : « سَمِعْتُها الْبارِحَةَ مِنْ فُلانٍ ! »

قُلْتُ لَهُ : « كَيْفَ صَدَّقْتَهُ فِيما قالَ ؟ »

قالَ لِي : « هُوَ عِنْدِي راوٍ أَمِينٌ ، لا شَكَّ فِي صِدْقِهِ . »

٢ — مِنْ فُلانٍ إلى فُلانٍ

ذَهَبْتُ إلى فُلانٍ هٰذا أسْأَلُهُ :

« كَيْفَ جازَ فِي زَعْمِكَ أنْ تَلِدَ امْرَأَةٌ غُرابًا ، وَأنَّ الْغُرابَ تَحَدَّثَ - بَعْدَ وِلادَتِهِ - ثُمَّ طارَ ، وَغابَ عَنِ الأنْظارِ ؟ ! »

قالَ الرَّجُلُ : « مَنْ أخْبَرَكَ بِهٰذا ، يا أبا الْغُصْنِ ؟ »

قُلْتُ : « أخْبَرَنِي بِهِ فُلانٌ ، وَأكَّدَهُ لِي كُلَّ التَّأكيدِ ، بَعْدَ أنْ زَعَمَ أنَّكَ أفْضَيْتَ بِهِ إلَيْهِ ، كَما رَواهُ . »

قالَ ، فِي دَهْشَةِ الْمُسْتَنْكِرِ : « كَيْفَ تَقُلَ عَنِّي هٰذا الْكَلامَ ؟ ! أنا لَمْ أرْوِ الْخَبَرَ عَلَى هٰذِهِ الصُّورَةِ الَّتِي تَرْوِيها .

ناقِلُ الْخَبَرِ لَمْ يَكُنْ أمِينًا فِي نَقْلِ ما سَمِعَهُ مِنِّي .

أبَى ناقِلُ الْخَبَرِ إلَّا أنْ يُضِيفَ إلَى ما سَمِعَ وَيَتَزَيَّدَ .

أنا لَمْ أقُلْ : إنَّ الْغُرابَ تَحَدَّثَ - بَعْدَ وِلادَتِهِ - ثُمَّ طارَ .

كُلُّ ماقُلْتُهُ : أنَّ الزَّوْجَةَ وَلَدَتْ غُرابًا ، وَأنَّ الْغُرابَ مَشَى - بَعْدَ وِلادَتِهِ - خُطُواتٍ قَلِيلَةً ، ثُمَّ ماتَ . »

قُلْتُ لِنَفْسِي : كَيْفَ وَلَدَتِ الزَّوْجَةُ غُرابًا ؟

سَألْتُ صاحِبِي : « مِمَّنِ اسْتَقَيْتَ هٰذا الْخَبَرَ ؟ »

قالَ الرَّجُلُ : « الْحَقُّ أنِّي سَمِعْتُهُ مِنْ فُلانٍ . »



ذَهَبْتُ إِلَى فُلانٍ الثَّانِي أَسْأَلُهُ :

« كَيْفَ جازَ — فِي فَهْمِكَ — أَنْ تَلِدَ آدَمِيَّةٌ

غُراباً يَمْشِي عَلَى قَدَمَيْهِ ، أَوْ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ ؟ »

قالَ لِي : « عَلَى مَهْلِكَ ، يا « أَبا الْغُصْنِ » .

لَا تَتَعَجَّلْ - يا صاحِبِي - فِي الْحُكْمِ عَلَىَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ .

ما أَكْثَرَ ما يَتَقَوَّلُ النَّاسُ ، وَيَتَزَيَّدُونَ فِيما يَسْمَعُونَ .

كُنْ عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ ناقِلَ الْخَبَرِ كانَ غَيْرَ صادِقٍ فِيما نَسَبَهُ إِلَيَّ

مِنْ حَدِيثٍ ، كَشَأْنِ الْكَثِيرِينَ مِنْ أَمْثالِهِ .

أَنا لَمْ أَرْوِ الْخَبَرَ عَلَى هٰذِهِ الصُّورَةِ الَّتِي قَصَصْتَها

لَوْ أَنَّنِي سَمَحْتُ لِنَفْسِي أَنْ أَرْوِيَ الْخَبَرَ عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ ،

لَحَسِبَنِي النَّاسُ مَعْتُوهًا أَوْ مَخْبُولًا ، لا يَعْرِفُ ماذا يَقُولُ .

أَبَى صاحِبِي إِلَّا أَنْ يُضِيفَ إِلَى الْخَبَرِ ، وَيَتَزَيَّدَ فِيهِ .

لَمْ يَكُنْ أَمِينًا فِي نَقْلِ ماسَمِعَهُ مِنِّي عَلَى أَيِّ حالٍ .

لَمْ أَقُلْ : إِنَّ الْغُرابَ مَشَى بَعْدَ أَنْ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ .

اَلْغُرابُ - فِيما عَرَفْتُ - وُلِدَ ساكِنًا لايَتَحَرَّكُ .

الْغُرابُ لَمْ يَمْشِ خُطْوَةً واحِدَةً ، لَمَّا وُلِدَ .

الْغُرابُ لَمْ يَعِشْ . لَقَدْ ماتَ عَلَى أَثَرِ وِلادَتِهِ .

هٰذا كُلُّ ما قُلْتُهُ لِصاحِبِي ، يا أَبا الْغُصْنِ . »

٣ — تَناقُضُ الْخَبَرِ

سَأَلْتُ صاحِبِي : « مَنْ أَخْبَرَكَ بِهٰذا الْخَبَرِ الْعَجِيبِ ؟ »

قالَ لِي . « الْحَقُّ أَنَّ الَّذِي أَخْبَرَنِي بِهِ فُلانٌ . »



حِرْتُ فِي كُلِّ ما سَمِعْتُ ، لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُصَدِّقَ ما يُقالُ .

كَيْفَ تَلِدُ إِنْسانَةٌ مِنَ الْآدَمِيِّينَ غُرابًا ، وَهُوَ مِنْ جِنْسِ الطَّيْرِ .

أَصْرَرْتُ عَلَى أَنْ أَتَعَرَّفَ الْحَقِيقَةَ الصَّحِيحَةَ ، وَلا أَرْكَنَ

إِلَى ما يُشِيعُهُ النَّاسُ مِنْ أَقاوِيلَ ، وَإِنْ كانَتْ أَباطِيلَ !..

ذَهَبْتُ إِلَى فُلانٍ الثّالِثِ أَسْأَلُهُ . أَحالَنِي عَلَى رابِعٍ .

ذَهَبْتُ إِلَى الرَّابِعِ أَسْأَلُهُ . أَحالَنِي عَلَى خامِسٍ .

هٰكَذا : ظَلِلْتُ أَتَقَصَّى الأُكْذُوبَةَ الشَّائِعَةَ ، مِنْ خامِسٍ إِلَى سادِسٍ ، وَمِنْ سادِسٍ إِلَى سابِعٍ .

حَرَصْتُ عَلَى أَنْ أَتَتَبَّعَ مَصادِرَ الشّائِعَةِ ؛ لَعَلِّي أَتَبَيَّنُ حَقِيقَةَ ما حَدَثَ فِي هٰذِهِ الْقِصَّةِ ، عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ .

كانَ عَجَبِي يَشْتَدُّ مِنْ تَضارُبِ الأَخْبارِ ، وَتَناقُضِ الرِّواياتِ .

واحِدٌ يَزْعُمُ : أَنَّ الْغُرابَ كَلَّمَ أُمَّهُ حِينَ وَلَدَتْهُ ، ثُمَّ طارَ .

وَثانٍ يَزْعُمُ : أَنَّ الْمَرْأَةَ لَمْ تَلِدْ غُرابًا ، كَما أَشاعَ ذٰلِكَ بَعْضُ النّاسِ ، بَلْ وَلَدَتْ طائِرًا يُشْبِهُ الْغُرابَ !

وَثالِثٌ يَزْعُمُ : أَنَّ الْمَرْأَةَ لَمْ تَلِدْ فِي الْحَقِّ غُرابًا ، وَلا طائِرًا يُشْبِهُ الْغُرابَ ؛ بَلْ وَلَدَتْ جِسْمًا لَهُ وَجْهُ غُرابٍ !

وَرابِعٌ يَدَّعِي أَنَّ جِسْمَ الْغُرابِ صارَ فِي حَجْمِ إِنْسانٍ .

وَخامِسٌ يَقُولُ : « بَلْ وَلَدَتْ طائِرًا عَجِيبَ الْخِلْقَةِ ، لَمْ يَشْهَدِ النّاسُ مِثْلَهُ ، لَهُ وَجْهُ إِنْسانٍ ، وَجِسْمُ غُرابٍ ! »

وَسادِسٌ وَسابِعٌ يَقُولانِ شَيْئًا غَيْرَ ما قالَهُ الآخَرُونَ .

٤ – فِي بَيْتِ « أَبِي الفَضْلِ »

ظَلَّتِ الأُكْذُوبَةُ الشَّائِعَةُ تَنْكَمِشُ وَتَتَضاءَلُ وَتَتَنَاقَصُ .
انْتَهَى بِيَ البَحْثُ إِلَى لِقاءِ والِدِ الطِّفْلِ الَّذِي دارَتْ حَوْلَهُ الشَّائِعَةُ .
مِنْ عَجائِبِ الاتِّفاقِ ؛ أَنَّهُ كانَ مِنْ صَفْوَةِ أَصْدِقائِي القُدامَى .
كانَ يُدْعَى : « أَبا الفَضْلِ » . كُنْتُ أَرْتادُ نَدْوَتَهُ بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ .
كانَ مِثالاً لِلْوَفاءِ والذَّكاءِ . كانَتْ فُرْصَةً سانِحَةً لِشُهُودِ نَدْوَتِهِ .
أَسْرَعْتُ إِلَى بَيْتِهِ . رَأَيْتُهُ جالِسًا بَيْنَ جَماعَةٍ مِنْ أَصْحابِهِ .
كانُوا يَتَسامَرُونَ فِي دارِهِ ، عَلَى عادَتِهِمْ فِي لَيالِي الجُمَعِ .

٥ – مَصْدَرُ الشَّائِعَةِ

حَرَصْتُ عَلَى أَنْ أَعْرِفَ الحَقِيقَةَ مِنْ « أَبِي الفَضْلِ » نَفْسِهِ .
أَفْضَيْتُ إِلَيْهِ بِما زَعَمَتْهُ الشَّائِعَةُ مِنَ الخَبَرِ العَجِيبِ .
اِشْتَدَّتِ الدَّهْشَةُ مِمَّا قُلْتُ .
أَغْرَقَ الرَّجُلُ وَضُيُوفُهُ فِي الضَّحِكِ .
لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ بِبالِهِمْ أَنْ يَصِلَ البَلَهُ وَالغَباءُ بِبَعْضِ النَّاسِ إِلَى تَناقُلِ أَمْثالِ هٰذِهِ الخُرافاتِ .
« بِرَبِّكَ أَخْبِرْهُ أَنْتَ بِجَوابِ سُؤالِهِ ! »

اِبْتَسَمَ الرَّجُلُ . قالَ في دَهْشَةٍ واسْتِنْكارٍ :

« ما أعْجَبَ ما يَتَمَيَّزُ بِهِ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ بَلاهَةٍ وَسَذاجَةٍ .

إِلَيْكَ قِصَّةَ الغُرابِ الطَّائِرِ الَّتِي حَيَّرَكَ أمْرُها .

إِلَيْكَ حَقِيقَةَ ما حَدَثَ عَلَى الوَجْهِ الصَّحِيحِ :

مُنْذُ أيَّامٍ ، أخْبَرَنِي « أبُو الفَضْلِ » هٰذا أنَّ زَوْجَتَهُ وَضَعَتْ مَوْلُودًا ظَرِيفًا ، بَعْدَ أنْ طالَ انْتِظارُهُ لِيَمُنَّ اللّٰهُ عَلَيْهِ بِالوَلَدِ .

سَأَلْتُهُ : « ماذا اخْتارَ لِوَلِيدِهِ مِنَ الأسْماءِ ؟ »

قالَ : « سَمَّيْتُهُ « خالِدًا » ، آمِلًا أنْ يَسْتَجِيبَ اللّٰهُ لِدُعائِي ، وَيُحَقِّقَ فِيهِ رَجائِي ، فَيُطِيلَ عُمْرَهُ . »

حَلا بَيْنَنا السَّمَرُ . طالَ بِنا السَّهَرُ .

قالَ أحَدُ الحاضِرِينَ : « سَيَعِيشُ وَلَدُكَ « خالِدٌ » - إنْ شاءَ اللّٰهُ - عُمْرًا طَوِيلًا ، أطْوَلَ مِنْ عُمْرِ الغُرابِ ! »

قُلْتُ لِـ « أبِي الفَضْلِ » أُداعِبُهُ وَأُمازِحُهُ : « سَيَمُدُّ اللّٰهُ فِي عُمْرِ هٰذا الغُرابِ ، حَتَّى يَكُونَ أطْوَلَ مِنَ الغِرْبانِ عُمْرًا ! »

هٰذا كُلُّ ما حَدَثَ ، يا « أبا الفَضْلِ » .

لَمْ أزِدْ فِيهِ شَيْئًا ، وَلَمْ أنْقُصْ .

كانَ هٰذا الحِوارُ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ الماضِيَةِ .

لَمْ يَمْضِ عَلَيْهِ مِنَ الزَّمَنِ أَكْثَرُ مِنْ أُسْبُوعٍ واحِدٍ .

ما أَعْجَبَ ما يَكْذِبُ النَّاسُ فِي أَحادِيثِهِمْ وَيَزِيدُونَ !

ضَلَّ مَنْ يُصَدِّقُ الظُّنونَ . وَلِلّهِ فِي خَلْقِهِ شُئُونٌ ! »

اِلْتَفَتَ الرَّجُلُ بَعْدَ قَلِيلٍ ، يُسائِلُنِي مُتَعَجِّبًا :

« لَسْتُ أَدْرِي - يا « أَبا الْغُصْنِ » - كَيْفَ شَوَّهَ النَّاسُ هٰذِهِ الدُّعابَةَ ؟

كَيْفَ حَوَّلُوا فِيها وَغَيَّرُوا ، وَبَدَّلُوا وَدَوَّرُوا ؟

كَيْفَ تَمادَوْا فِي خَيالِهِمْ ؛ فَأَشاعُوا عَنِ الْمَوْلُودِ أَنَّهُ غُرابٌ ، وَأَنَّهُ تَحَدَّثَ إِلَى أُمِّهِ - بَعْدَ وِلادَتِهِ - ثُمَّ طارَ ، وَلَمْ يَزَلْ يَطِيرُ حَتَّى غابَ عَنِ الأَبْصارِ ؟

لَسْتُ أَدْرِي مِمَّنْ أَتَعَجَّبُ : أَمِنَ الَّذِينَ تُسَوِّلُ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ تَلْفِيقَ الأَكاذِيبِ ، وَصُنْعَ الشَّائِعاتِ وَالأَعاجِيبِ ، أَمْ مِنَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ كُلَّ ما يُقالُ ، وَإِنْ كانَ مِنَ الْمُحالِ ؟ »

اِسْتَوْلَتِ الدَّهْشَةُ عَلَى الْحاضِرِينَ .

اِلْتَفَتَ إِلَيْنا « أَبُو الْفَضْلِ » ، مُتَمَثِّلًا بِقَوْلِ الْقائِلِ :

« هُمُ نَقَلُوا - عَنِّي - الَّذِي لَمْ أَفُهْ بِهِ

وَما آفَةُ الأَخْبارِ إِلَّا رُواتُها ! »

العصفورُ النّاطقُ

١ - عَوْدٌ إلى بَيْتِ « أبى الفضلِ »

قالَ « أبو الفضلِ : عَبْدُ اللهِ جُحا » :

« عُدْتُ إلى بَيْتِ « أبى الفضلِ » بَعْدَ أُسْبوعٍ ، فتذاكَرْنا فى مَجْلِسِهِ شأنَ أولئكَ الّذينَ لا يَحْتَفِظونَ بالسِّرِّ ، وشأنَ الّذينَ يُصَدِّقونَ كُلَّ شائعةٍ ، كأنّهم الببغاوات ، تُرَدِّدُ كُلَّ ما تَسْمَعُ دونَ فَهْمٍ . »

٢ - تجرِبةٌ واخْتِبارٌ

فقالَ أحدُ الجُلَساءِ : « عِنْدى قِصَّةٌ طَريفَةٌ سَمِعْتُها ، وسأقُصُّها عَلَيْكُمْ ، فإنَّ فيها عِبْرَةً وَتَذْكِرَةً .

عاشَ فى مَدينَةِ « واسِطٍ » رَجُلٌ اسْمُهُ « الضّاحِكُ » .

كانَ شَديدَ الوُثوقِ بِصاحِبٍ لَهُ ، يُدْعَى : « الصّامِتَ » .

كانَ يَعْتَقِدُ أنَّهُ مِنْ أوْفَى النّاسِ وَأقْدَرِهِمْ عَلَى الاحْتِفاظِ بالسِّرِّ .

دَبَّ إلى قَلْبِهِ الشَّكُّ فيما كانَ يَعْتَقِدُهُ .

قالَ لِنَفْسِهِ : « ماذا عَلَيَّ إذا خَبَرْتُ أخلاقَ « الصّامِتِ » ، لأتَعَرَّفَ مَدَى قُدْرَتِهِ عَلَى الاحْتِفاظِ بالسِّرِّ ؟ »

٣ — بَيْنَ « الضَّاحِكِ » و « الصَّامِتِ »

رَأى ألّا يُضِيعَ الفُرْصَةَ . ذَهَبَ إلى بَيْتِ « الصَّامِتِ » . طَرَقَ بابَهُ .

زِيارَةٌ مُفاجِئَةٌ فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُها صاحِبُهُ .

اِسْتَيْقَظَ « الصَّامِتُ » - مِنْ نَوْمِهِ - مُتَعَجِّبًا .

سَأَلَ زائِرَهُ الصَّدِيقَ عَمَّا أَهَمَّهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ .

تَظاهَرَ « الضَّاحِكُ » بِالْجِدِّ وَالِاهْتِمامِ بِما حَضَرَ مِنْ أَجْلِهِ .

« لَدَيَّ سِرٌّ خَطِيرٌ . أَطْمَعَنِي خُلُقُكَ الْكَرِيمُ

— يا أَخِي — فِي أَنْ أُفْضِيَ بِهِ إِلَيْكَ .

أَنا عَلَى ثِقَةٍ أَنَّكَ لَنْ تُخْبِرَ بِهِ كائِنًا مَنْ كانَ . »

أَجابَهُ « الصَّامِتُ » : « ما أَجْدَرَنِي بِثِقَتِكَ ، يا « ضاحِكُ » !

لَيْسَ أَكْتَمَ لِلسِّرِّ مِنِّي ، وَلا أَصْوَنَ لَهُ . قُلْ ، فَأَنا أَسْمَعُ . »

قالَ « الضَّاحِكُ » : « لَسْتُ أَرْتابُ فِي وَفائِكَ ، وَلا أَشُكُّ

فِي إِخائِكَ . ذٰلِكَ عِنْدِي بِمَنْزِلَةِ الْيَقِينِ .

كُلُّ ما أَخْشاهُ أَنْ تَدْفَعَكَ غَرابَةُ ما تَسْمَعُ إِلَى الْإِفْضاءِ بِهِ(٢)

لِأَحَدٍ مِمَّنْ تَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ ، مِنْ خُلَصائِكَ وَأَصْفِيائِكَ .

إِذَنْ يَذِيعَ بَيْنَ النَّاسِ الْأَمْرُ ، وَيَفْتَضِحَ عِنْدَهُمُ السِّرُّ . »

قالَ « الصَّامتُ » : « لا تخْشَ شَيْئًا مِنْ ذلِكَ . لَنْ يَنْتَقِلَ

سِرُّكَ مِنْ صَدْرِى إِلَى كائِنٍ كانَ ، مِنَ الإِنْسِ أَوْ مِنَ الْجانِّ .

اِعْتَمِدْ - يا « ضاحِكُ » - عَلَيَّ ، وَأَفْضِ بِهِ إِلَيَّ . »

قالَ « الضَّاحِكُ » : « ما كانَ أَعْجَبَها مُفاجَأَةً !

مُنْذُ لَحَظاتٍ : وَضَعَتْ زَوْجَتِي ... ماذا أَقولُ ، يا أَخِي ؟

أَيُّ داهِيَةٍ دَهَمَتْنِي ؟ أَيُّ خَيْبَةِ أَمَلٍ أَصابَتْنِي ؟

أَتُراكَ مُصَدِّقِي ، إِذا قُلْتُ لَكَ : إِنَّ زَوْجَتِي وَلَدَتْ عُصْفُورًا !

نَعَمْ . وَلَدَتْ عُصْفُورًا . عُصْفُورًا وَلَدَتْهُ زَوْجَتِي مُنْذُ لَحَظاتٍ !

لَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَةَ بَلْوانا أَحَدٌ مِمَّنْ يُقِيمُونَ حَوْلَنا .

حَمِدْنا اللهَ عَلَى أَنَّنا لَمْ نَدْعُ قابِلَةً لِتَتَوَلَّى تَوْلِيدَ زَوْجَتِي .

بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ ، كَما يَقُولُ الْمَثَلُ .

حَرَصْنا عَلَى أَنْ نَكْتُمَ الْخَبَرَ عَنِ النَّاسِ جَمِيعًا ، حَتَّى الأَقْرِباء .

لَوْ ذاعَ النَّبأُ لأَصْبَحْنا هَدَفًا لِسُخْرِيَةِ السَّاخِرِينَ ، وَشَماتَةِ الشَّامِتِينَ .

لا تَسَلْ - يا « صامِتُ » - عَنْ دَهْشَتِي وَحَيْرَتِي تُجاهَ الْمُفاجَأَةِ .

كادَ يُذْهِلُنِي الْمُصابُ الْفادِحُ الَّذِي لا أَعْلَمُ لَهُ مَثِيلًا .

تَحَيَّرْتُ فِي أَمْرِي . ضاقَ بِالسِّرِّ الْمُزْعِجِ صَدْرِي .



لَمْ أَجِدْ أَحَدًا سِوَاكَ يُسَرِّي عَنِّي ، وَيُفَرِّجُ كُرْبَتِي .

أَتُرَانِي أَخْطَأْتُ حِينَ قَرَّرْتُ أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكَ بِهٰذَا السِّرِّ الْخَطِيرِ ، لِتُشَارِكَنِي فِي حَمْلِهِ وَالِاحْتِفَاظِ بِهِ ؟ »

أقبَلَ « الصَّامِتَ » عَلَى « الضَّاحِكِ » يُعَزِّيهِ وَيُهَوِّنُ عَلَيْهِ مُصابَهُ وَيُسَلِّيهِ .

لَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى آنسَ وَحْشَتَهُ ، وَفَرَّجَ كُرْبَتَهُ .

تَظَاهَرَ « الضَّاحِكُ » بِشُكْرِ صاحِبِهِ عَلَى وَفائِهِ وَإِخلاصِهِ .

عَادَ « الضَّاحِكُ » إِلَى بَيْتِهِ ، يَتَرَقَّبُ فِي صَباحِ لَيْلَتِهِ ، نَتِيجَةَ مُحاوَلَتِهِ .

٤ — بَيْنَ « الصَّامِتِ » وَزَوْجَتِهِ

أتَدْرُونَ ماذَا صَنَعَ « الصَّامِتُ » بَعْدَ خُرُوجِ صاحِبِهِ ؟

لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى فِرَاشِهِ ، لِيَنْعَمَ بِالنَّوْمِ .

جَلَسَ يَسْتَعِيدُ ما قالَهُ « الضَّاحِكُ » ، حَرْفًا حَرْفًا .

اِشْتَدَّ بِهِ الْعَجَبُ . ساوَرَهُ الْقَلَقُ مِمَّا سَمِعَ .

ضاقَ صَدْرُهُ أَيَّما ضِيقٍ بِسِرِّ صاحِبِهِ « الضَّاحِكِ » .

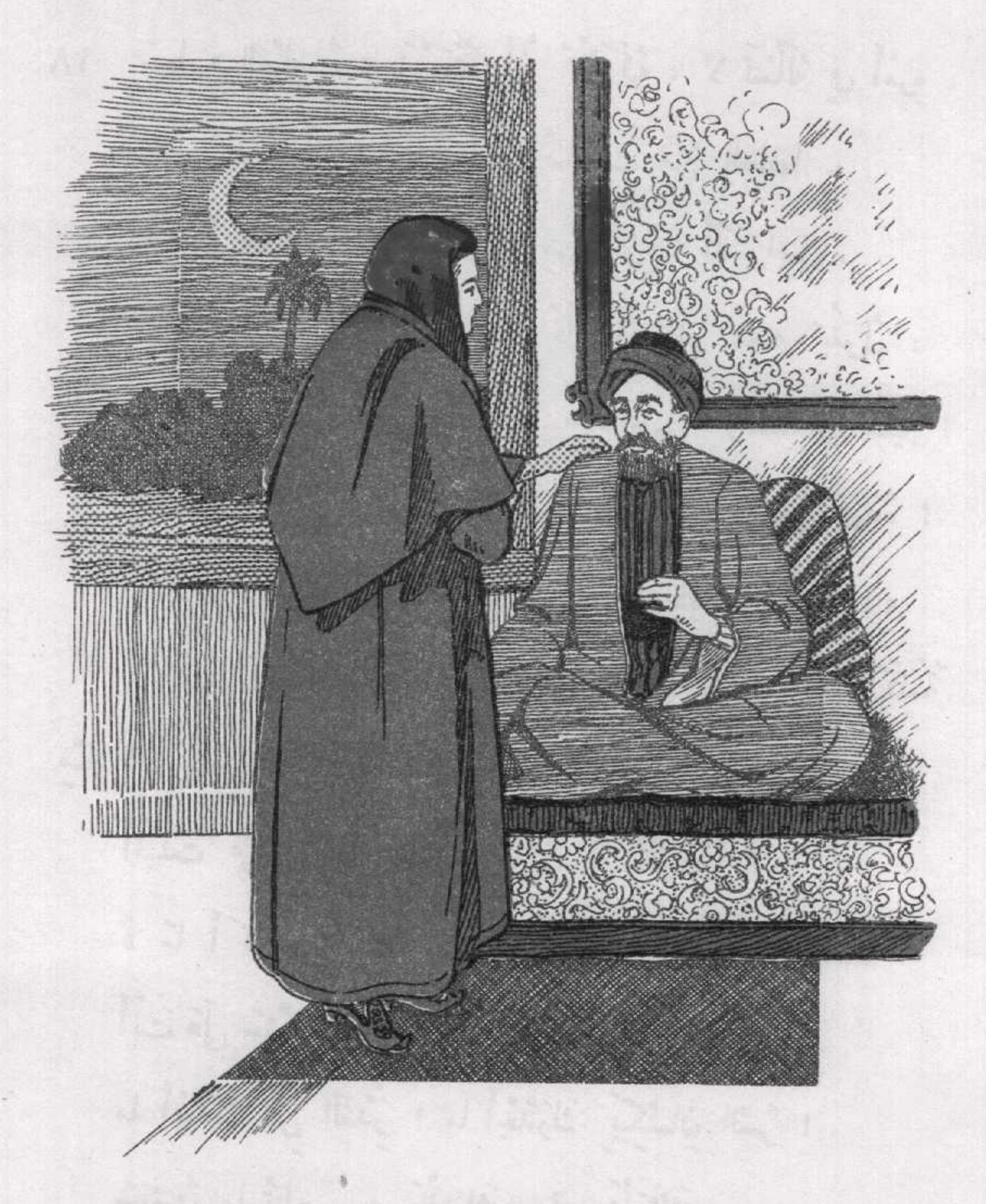
طارَ النَّوْمُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَطالَ بِهِ الْأَرَقُ وَالْقَلَقُ .

ظَلَّ يَتَقَلَّبُ عَلَى فِراشِهِ ، لا يَقَرُّ لَهُ قَرارٌ .

لَمَحَتْ زَوْجَةُ « الصَّامِتِ » دَلائِلَ الْحَيْرَةِ وَالْهَمِّ عَلَى وَجْهِهِ .

دَفَعَها الْفُضُولُ إِلَى تَعَرُّفِ سِرِّهِ الَّذِي أَقْلَقَهُ وَأَرَّقَهُ .

أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ مُتَوَدِّدَةً ، تَسْأَلُهُ أَنْ يُفْضِيَ إِلَيْها بِما أَهَمَّهُ وَأَضْجَرَهُ ، وَشَغَلَ بالَهُ وَأَسْهَرَهُ .



أَبَى « الصَّامِتُ » أَنْ يَنْطِقَ بِحَرْفٍ . لاذَ بِالسُّكاتِ .

زادَ الصَّمْتُ مِنْ فُضُولِ الزَّوْجَةِ الْحَيْرَى .

ضاعَفَ مِنْ شَوْقِها إِلَى تَعَرُّفِ السِّرِّ الْكَمِينِ .

 رُبَّما « الصَّامِتُ » زَوْجَتَهُ أَنْ تَتْرُكَهُ ، لا تَسْأَلُهُ في أَمْرِهِ .

زادَ رَجاؤُهُ لَها مِنْ فُضُولِها : ضاعَفَتْ مِنْ إِلْحافِها .

ضَيَّقَتْ عَلَيْهِ مَسالِكَ الْهَرَبِ مِنْ سُؤالِها الْمُتَواصِلِ .

ضاقَ « الصَّامِتُ » بِإِلْحاحِها ، فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يَقُولُ :

« يا لَهُ مِنْ سِرٍّ خَطِيرٍ ، اسْتَوْدَعَنِيهِ صاحِبِي ، وَاسْتَأْمَنَنِي عَلَيْهِ !

ماذا أَنا صانِعٌ ؟ ! كَيْفَ أَخُونُ وُدَّهُ ، وَأَنْقُضُ عَهْدَهُ ؟

كَلَّا : لا سَبِيلَ إِلَى إِذاعَةِ سِرِّهِ : هَيْهاتَ ذَلِكَ هَيْهاتَ !! »

كانَتْ زَوْجَتُهُ تَسْتَرِقُ السَّمْعَ ، عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْهُ، لَمْ تَفُتْها كَلِمَةٌ مِمَّا كانَ يُناجِي بِهِ نَفْسَهُ ، فَاعْتَزَمَتْ أَنْ تُصارِحَهُ بِما سَمِعَتْ .

أَقْبَلَتْ عَلَى زَوْجِها باسِمَةً . قالَتْ لَهُ مُتَوَدِّدَةً :

« ما أَكْرَمَ نَفْسَكَ ، وَأَنْبَلَ خُلُقَكَ ، وَأَعْظَمَ وَفاءَكَ !

أَنْتَ عَلَى حَقٍّ فِيما تَقُولُ ، يا زَوْجِيَ الْعَزِيزَ .

ما أَبْعَدَكَ عَنِ الْغَدْرِ ! ما أَجْدَرَكَ بِكِتْمانِ السِّرِّ !

سَمِعْتُ ما تُناجِي بِهِ نَفْسَكَ ، في خَلْوَتِكَ .

إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبُوحَ بِسِرِّكَ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ .

إِنَّ واجِبَ الْإِنْسانِ الْعاقِلِ الْحازِمِ أَنْ يَحْتَفِظَ بِسِرِّهِ لِنَفْسِهِ ، وَلا يَبُوحَ بِهِ إِلَّا لِمَنْ يَخافُ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَخافُ عَلَى نَفْسِهِ . »

قالَ « الصَّامِتُ » : « لَسْتُ أَفْهَمُ ما تَقُولِينَ ، فَأَفْصِحِي ! »

قالَتِ الزَّوْجَةُ : « إِنَّ شَرِيكَةَ الرَّجُلِ فِي الحَياةِ ، تَرْعَى سِرَّهُ

أَكْثَرَ مِمَّا يَرْعاهُ . فَإِنَّ كُلَّ مَضَرَّةٍ تُصِيبُهُ تَعُودُ عَلَيْها شَرًّا .

لِلزَّوْجَةِ مَعَ زَوْجِها ـ كَما تَعْلَمُ ـ شَأْنٌ مُخْتَلِفٌ عَنْ غَيْرِها .

لَيْسَ مِنْ شِيَمِ الوَفاءِ أَنْ يَحْجُبَ عَنْها زَوْجُها سِرًّا ،

مَا يَكُنْ فِي ذَلِكَ السِّرِّ مِنْ خَطَرٍ .

يَجِبُ الزَّوْجِ أَنْ يَكُونَ مِنْ زَوْجَتِهِ عَلَى ثِقَةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ . »

تَأَثَّرَ « الصَّامِتُ » بِمَنْطِقِ زَوْجَتِهِ . أَقْبَلَ عَلَيْها قائِلاً :

« ما شَكَكْتُ فِي إِخْلاصِكِ ـ يا عَزِيزَتِي ـ لَحْظَةً واحِدَةً .

أَنْتِ ـ حَقًّا ـ مِثالُ الزَّوْجَةِ الكامِلَةِ ، الرَّشِيدَةِ العاقِلَةِ .

كُلُّ ما أَخْشاهُ : أَنْ تَدْفَعَكِ غَرابَةُ السِّرِّ إِلَى الإِفْضاءِ بِهِ

إِلَى بَعْضِ مَنْ تَثِقِينَ بِقَوْلِهِنَّ ، مِنْ صَواحِبِكِ وَجاراتِكِ .

إِذَنْ يَذِيعَ فِيمَنْ حَوْلَنا الأَمْرُ ، وَيَفْتَضِحَ السِّرُّ . »

قالَتِ الزَّوْجَةُ : « هٰذا وَهْمٌ باطِلٌ ، لا مَجالَ لِافْتِراضِهِ .

لَيْسَ لَكَ عُذْرٌ ـ فِي تَرَدُّدِكَ ـ بَعْدَ أَنْ خَبَرْتَ ما فِي أَخْلاقِي

مُنْذُ عَرَفْتَنِي إِلَى اليَوْمِ ـ مِنْ تَمَسُّكٍ بِالوَعْدِ ، وَحِفاظٍ عَلَى العَهْدِ .

كُنْ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ وَفائِي لَكَ ، وَإِخْلاصِي نَحْوَكَ ! »

٥ – اِنْتِقالُ السِّرِّ

فَكَّرَ « الصَّامِتُ » فِي الأَمْرِ ، وَقالَ لِنَفْسِهِ : « لَيْسَ مِنْ حَقِّي أَنْ أَرْتابَ فِي شَيْءٍ مِمَّا تَقُولُهُ زَوْجَتِي . »

اِقْتَنَعَ « الصَّامِتُ » . لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي الإِفْضاءِ بِسِرِّهِ إِلَى زَوْجَتِهِ .

أَراحَ صَدْرَهُ مِمَّا أَثْقَلَهُ مِنْ سِرٍّ خَطِيرٍ ، فَأَشْرَكَ فِيهِ زَوْجَتَهُ .

زالَتْ أَسْبابُ السَّهَرِ وَالْقَلَقِ ، بَعْدَ أَنْ فَرَّجَ هَمَّهُ ، وَخَلَّصَ نَفْسَهُ .

اِسْتَسْلَمَ « الصَّامِتُ » لِلْمَنامِ ، وَهامَ فِي عالَمِ الأَحْلامِ .

٦ – جارَةُ « الصَّامِتِ »

لَمْ تَهْدَأْ زَوْجَةُ « الصَّامِتِ » . حالَفَها السَّهَرُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ .

جَثَمَ عَلَى صَدْرِها السِّرُّ . ضاقَ صَدْرُها بِحَمْلِهِ ، كَما ضاقَ صَدْرُ « الصَّامِتِ » مِنْ قَبْلُ . عَبَثًا حاوَلَتْ أَنْ تَجِدَ إِلَى النَّوْمِ سَبِيلًا .

لَمْ تَرَ بُدًّا مِنْ تَفْرِيجِ كَرْبِها ، وَالإِفْضاءِ لِجارَتِها بِسِرِّها .

لَمْ تُطِقْ أَنْ تَصْبِرَ إِلَى الصَّباحِ . أَسْرَعَتْ إِلَى بَيْتِ جارَتِها .

طَرَقَتْ بابَها . أَيْقَظَتْها مِنْ لَذِيذِ رُقادِها

صَحَتِ الجارَةُ مِنْ نَوْمِها مُفَزَّعَةً . سَأَلَتْ زَوْجَةَ « الصَّامِتِ » :

« ماذَا أَتَى بِكِ فِي هٰذا الْوَقْتِ الْمُتَأَخِّرِ مِنَ اللَّيْلِ ؟ ! »

دارَ بَيْنَ الْجارَتَيْنِ حِوارٌ طَوِيلٌ ، حَوْلَ السِّرِّ الْخَطِيرِ .



أَقْسَمَتِ الْجارَةُ لَتَكْتُمَنَّ سِرَّ جارَتِها ، وَلَتَحْتَفِظَنَّ بِحِكايَتِها

اِطْمَأَنَّتْ زَوْجَةُ « الصّامِتِ » . أَفْضَتْ إِلَى جارَتِها بِما سَمِعَتْهُ ،

بَعْدَ أَنْ زادَتْ فيهِ : أَنَّ الضّاحِكَ سَمّى وَلَدَهُ : « غَنْدورًا » .

٧ – جارَةُ الجارَةِ

رَجَعَتْ زَوْجَةُ « الصّامِتِ » إلَى بَيْتِها ، ناعِمَةَ البالِ .

هَدَأَتْ ثائِرَتُها ، بَعْدَ أَنْ أَفْضَتْ بِالسِّرِّ إلَى جارَتِها .

أَسْرَعَتْ إلَى فِراشِها ، وَاسْتَسْلَمَتْ لِلنَّوْمِ عَيْناها ...

لَمْ تَنَمْ جارَةُ « الصّامِتِ » . اِشْتَدَّ بِها الْقَلَقُ . أَثْقَلَ صَدْرَها حَمْلُ السِّرِّ . لَمْ تُطِقْ صَبْرًا إلَى الصَّباحِ . أَسْرَعَتْ إلَى جارَتِها ، تَطْرُقُ بابَها وَتُوقِظُها ، وَتُفْضِي إلَيْها بِما سَمِعَتْ مِنْ زَوْجَةِ « الصّامِتِ » ، بَعْدَ أَنِ اسْتَوْثَقَتْ مِنِ احْتِفاظِها بِالسِّرِّ .

لَمْ تَرْوِ الْخَبَرَ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي سَمِعَتْهُ مِنْ جارَتِها الأُولَى .

أَضافَتْ جارَةُ « الصّامِتِ » إلَى ما سَمِعَتْهُ مِنْها وَتَزَيَّدَتْ .

زَعَمَتْ أَنَّ « الضّاحِكَ » أَلْبَسَ وَلِيدَهُ طُرْطُورًا .

٨ – مِنْ جارَةٍ إلَى جارَةٍ

ذَهَبَتِ الْجارَةُ الثّالِثَةُ إلَى الْجارَةِ الرّابِعَةِ .

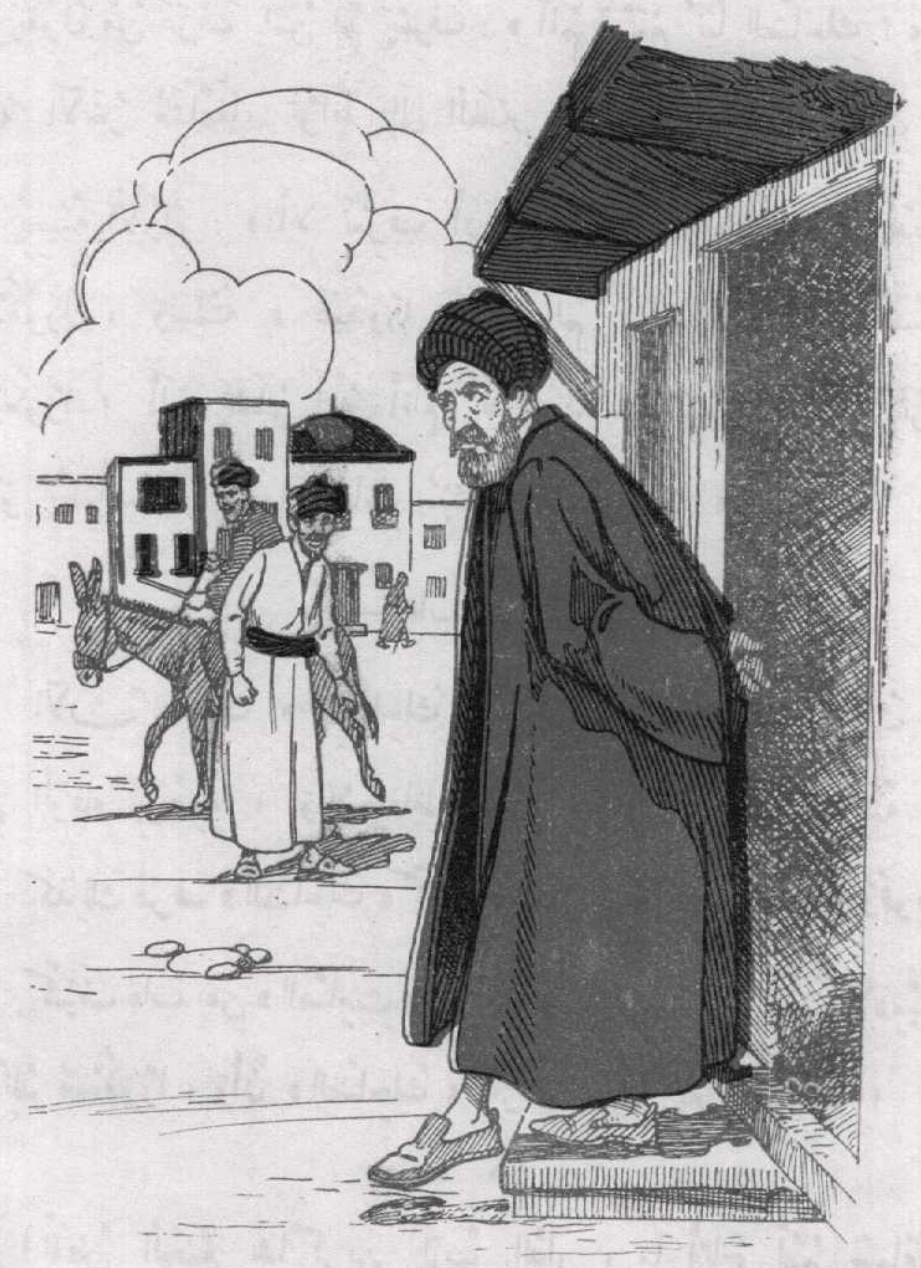
لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُبْقِيَ السِّرَّ فِي صَدْرِها كَمِينًا .

لَمْ يَخْتَلِفْ شَأْنُها عَنْ شَأْنِ الْجارَتَيْنِ الأُولَى وَالثّانِيَةِ .

أَضافَتِ الثّالِثَةُ إلَى ما سَمِعَتْ . تَزَيَّدَتْ فِيما رَوَتْ .

زَعَمَتْ أَنَّها رَأَتِ « الضّاحِكَ » يَطُوفُ بِمَوْلُودِهِ وَيَدُورُ .

٩ — ذُيُوعُ الْخَبَرِ



اِسْتَيْقَظَ « الضَّاحِكُ » مِنْ نَوْمِهِ ، فِي صَبَاحِ يَوْمِهِ .
خَرَجَ لِبَعْضِ شَأْنِهِ . أَفْزَعَهُ ما سَمِعَ مِنْ أَفْوَاهِ جِيرانِهِ .

السِّرُّ يَتَنَاقَلُهُ رُوَاتُهُ مُتَنَادِرِينَ ، وَيَتَقَبَّلُهُ سَامِعُوهُ مُصَدِّقِينَ .

يَقُولُ مَنْ عَرَفَ لِمَنْ لَمْ يَعْرِفْ : « أَلَمْ تَسْمَعْ نَبَأَ الضَّاحِكِ ؟ »

يَسْأَلُهُ الآخَرُ مُتَلَهِّفًا، تَوَّاقًا إِلَى الْخَبَرِ مُتَشَوِّفًا : « مَاذَا حَدَثَ لَهُ ؟ »

يُجِيبُهُ الأَوَّلُ : « أَلا تَعْرِفُ أَنَّ زَوْجَةَ « الضَّاحِكِ » وَلَدَتْ عُصْفُورًا ، وَسَمَّتْهُ « غَنْدُورًا » ؟ أَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ أَبَاهُ أَلْبَسَهُ طَرْطُورًا ؟ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ أَقَامَ لَهُ حَفْلًا مَشْهُورًا ؟ أَلَمْ تَرَهُ وَهُوَ يَطُوفُ بِهِ فِي الطُّرُقَاتِ مُبْتَهِجًا مَسْرُورًا ؟ »

١٠ – غابَ عَنِ الرُّوَاةِ

الآنَ عَرَفَ « الضَّاحِكُ » كَيْفَ عَجَزَ « الصَّامِتُ » عَنِ الْوَفَاءِ بِوَعْدِهِ ، وَالاِحْتِفَاظِ بِسِرِّهِ ، عَلَى غَيْرِ الْمُنْتَظَرِ مِنْهُ !

كَذَلِكَ عَرَفَ « الضَّاحِكُ » كَيْفَ انْتَشَرَ الْخَبَرُ ، مَعَ اسْتِحَالَةِ وُقُوعِهِ ؟

كَيْفَ غَابَ عَنِ « الصَّامِتِ » - كَمَا غَابَ عَنِ الرُّوَاةِ - أَنَّ الآدَمِيَّةَ لا تَلِدُ عُصْفُورًا ، وَأَنَّ « الضَّاحِكَ » عَزَبٌ ، لَمْ يَتَزَوَّجْ بَعْدُ ؟

• • •

انْفَضَّ الْجَمْعُ شَاكِرِينَ لِرَبِّ الدَّارِ ، مَا أَتَاحَ لَهُمْ سَمَاعَهُ مِنْ عَجَائِبِ الطُّرَفِ وَالأَخْبَارِ ، وَبَدَائِعِ الْمُلَحِ وَالأَسْمَارِ .

تَمَّتِ الْقِصَّةُ

﴿ يُجاب – مِمَّا فى هذه الحِكاية – عن الأسئلة الآتيــة ﴾ :

١ – ما هى الشَّائِعَةُ التى انْتشرت فى شَأْنِ الرَّجُلِ وزوْجَتِه وموْلُوده ؟

٢ – ماذا قال « فُلانٌ الأوَّلُ » ، حين سُئِل عن هٰذه الشَّائعة ؟

٣ – ماذا قال « فلانٌ الثانى » حين سأله « جُحا » عنْ حقيقةِ الخَبَرِ ؟

٤ – لماذا لم يُصدِّق « جُحا » ما سمِعَه من « فُلانٍ » و « فُلانٍ » ؟

٥ – كَمْ عددُ الذين حاول « جُحا » أن يتعرَّفَ الحقيقةَ مِن أقْوالهم ؟

٦ – ما هِيَ الأقوالُ المُتَضارِبَةُ فى شَأْنِ وِلادَةِ الغُراب وحَياتِه ؟

٧ – كيف توَصَّل « جُحا » إلى معْرِفة مصْدرِ الشَّائِعة ؟

٨ – بماذا سَمَّى « أبو الفَضْلِ » ولدَه الجديدَ ؟

٩ – كيف نشأت إشاعةُ : أنَّ المولودَ غُرابٌ ؟

١٠ – لماذا حارَ « أبو الفضلِ » : أىُّ الفريقَيْن أدْعَى إلى التعجُّب ؟

١١ – ماذا كان يعتقِدُ « الضَّاحِكُ » فى صاحِبِه « الصَّامِت » ؟

١٢ – ما السِّرُّ الذى أفْضَى به « الضَّاحِكُ » إلى صاحِبِه « الصَّامِت » ؟

١٣ – ماذا صنع « الصَّامِتُ » بَعْدَ خُروجِ صاحِبِه « الضَّاحِك » ؟

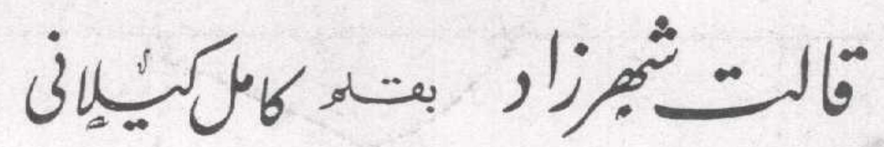
١٤ – ماذا كان بيْن « الصَّامِتِ » وزوْجتِه بعد خُروجِ صاحِبِه ؟

١٥ – بماذا نصَحَت الزَّوْجةُ لـ « الصَّامِت » ؟

١٦ – ماذا دار بيْنَ زوْجَةِ « الصَّامِتِ » وجارَتِها ؟

١٧ – ما هى الزِّيادات التى أضافَتْها الجاراتُ إلى وِلادَةِ المُصْفُورِ ؟

١٨ – كيف عرف « الضَّاحِكُ » أن السِّـرَّ قدْ ذاعَ وشاعَ ؟



بنت الوزير
أمير العفاريت
قاهر الجبابرة
حصان الجو
الأمير الحادى والخمسون
الشمعدان الحديدى
ريحان الكذاب
كنز الشمردل
شجرة الحياة
غزلان الغابة

الأميرة وردة
السنجاب الصغير
أسرار « عمار »
شهر زاد وشهريار
صانع الأعاجيب
عجيبة وعجيبة
نعجة الجبل
بساط الريح
الأمير المسحور
عجائب الدنيا الثلاث

إعداد : رشاد كيلانى

دار مكتبة الأطفال . القاهرة
أول مؤسسة عربية لتثقيف الطفل